مع ناشر أمريكى يهودى

فى إحدى سفرياتى إلى لندن منذ عدة سنوات لحضور معرض لندن للكتاب ، دعانى ناشر إنجليزى للعشاء ، وأخبرنى أنه سيكون معنا ناشر أمريكى وزوجته .

ذهبت وزوجتى إلى المطعم الأنيق فى إحدى ضواحى لندن ، وتقابلنا جميعاً وبدأنا الثرثرة فى أمور النشر والكتاب فى إنجلترا وأمريكا والشرق الأوسط . بعد قليل تبين أن الأمريكى يهودى ، وبدأ يتحدث عن مشاكل الشرق الأوسط وعلاقة إسرائيل بدول المنطقة * . ثم اقترح لحل مشكلة الفلسطينيين أن يتم توزيعهم على البلاد العربية ، فهى كثيرة ومساحاتها شاسعة ويمكن استيعاب الفلسطينيين فيها . فاقترحت عليه فى المقابل أن يتم توزيع اليهود على الولايات الأمريكية ، فهى قارة وحدها ، وكثافتها السكانية منخفضة ، وهناك أيضا أستراليا وكندا والأولى عدد سكانها أقل قليلاً من القاهرة ، وهى قارة أيضا وحدها ، وكندا عدد سكانها أكبر قليلاً من القاهرة ، بينما مساحتها أكبر من أى دولة فى العالم ، أو يعود اليهود الذين هاجروا لفلسطين كل إلى بلده الأصلى .

قال : كيف تطلب أن نخرج اليهود من إسرائيل وقد عمّروا الأراضى وأحسنوا استغلالها ، وأداؤهم الاقتصادى أفضل من الفلسطينيين ؟

قلت : هذا ما تروجه الدعاية اليهودية دائماً .. ففلسطين كانت مزرعة الشرق الأوسط ، أرضها خصبة وشهرتها قديمة فى زراعة الزيتون - من أيام المسيح عليه السلام - والحمضيات والفواكه وغيرها ، وكانت موانيها لا تقل أهمية عن الأسكندرية وبور سعيد وبيروت واللاذقية .

---

* كان ذلك قبل اتفاق غزة - أريحا بسنوات .

ولو افترضنا جدلاً أن الأداء الاقتصادى لإسرائيل أفضل من الأداء الفلسطينى* ، فهل هذا يعطيهم الحق فى اغتصاب أرضهم ؟ فإذا كان ذلك كذلك فيحق للألمان واليابانيين والسويسريين والسويديين اغتصاب أراضى العالم كله .. بما فى ذلك أراضى أمريكا ، بل لن تتوقف دول العالم عن اغتصاب أراضى بعضها البعض ، فالأداء الاقتصادى يتغير ارتفاعاً وانخفاضاً بصفة مستمرة ، فيتحول العالم - حسب اقتراحك - لاغتصابات متتالية لاتنحصر فى مكان ولا زمان . ثم من الذى له صلاحية تحديد الأهداف الاقتصادية لكل بلد وقياس أدائه ؟ ثم على أى أساس تقرر أن الأداء الاقتصادى هو أهم ما فى الحياة ؟ ألم تقرأ فى الكتاب المقدس فى عهديه القديم والجديد : ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان !

ياسيدى الفاضل لقد أشعلت إسرائيل ٤ حروب فى المنطقة فى أقل من خمسين عاماً ، نكبت أهل المنطقة فى الدم والنفس والمال ، وأضافت لمشكلات العالم مشكلة أصبحت مستعصية الحل على كل الأطراف .

هنا تدخلت زوجته قائلة : الأفضل لكم أن تسالموا إسرائيل ، فمشاكلكم كثيرة جداً ، يكفى أنكم قد لا تجدون الماء قريباً جداً ** ، ثم أنكم تزعمون أنكم - العرب - متحدون ، فى الوقت الذى لا تنقطع بينكم الحروب .

أجبت : لست أدرى كيف لانجد الماء فى مصر ، هل سيتوقف النيل عن الجريان ؟ أم ستقوم قوة جهنمية بتغيير مساره عن مصر ؟ أما إننا نحارب بعضنا البعض ، فهذه حقيقة مؤلمة ومخزية ، وقد مرت بها أوروبا قرون طويلة ، ولم تنقطع حروبها إلا فى منتصف القرن الحالى ، فنأمل أن نتوقف نحن أيضا عن ذلك قريباً . أما أمريكا ، ففى عمرها القصير جداً ، فقد خاضت حروب لا أول لها ولا آخر ، مع الإنجليز ومع الفرنسيين ، ومع الإسبان ، ومع المكسيك والفلبين ، ثم حربين عالميتين ، ثم كوريا وفيتنام ، وفى وسط ذلك حرب أهلية ! . وأنا لا أنفى مسئوليتنا جميعاً - شعوباً وحكاماً - عن تلك الحروب ، ولكن لا تنسى أنت قاعدتكم الذهبية التى لم تتخلوا

---

* لنا عودة فى آخر الكتاب عن الاقتصاد الإسرائيلى .

** كانت مشاكل جنوب السودان فى أوجها بسبب انتصارات قوات جارانج التى تعمل على فصل جنوب السودان ، الأمر الذى بدأه الإنجليز منذ قرن !

عنها قيد أنملة - إلا فيما تدعونه عكس ذلك ، مثل اهتمامكم بحقوق الإنسان وحقوق الأقليات ، وهى فى الواقع إثارة الأقليات - قاعدة فرق تسد * ، وأذكرك - فى المقابل - بما كتبه المؤرخ والفليسوف الأمريكى ول ديورانت فى « عصر الإيمان » دار نشر سيمون وشوستر (سنة ١٩٥٤ ص ٢١٨) إضطر الحاكم الإسلامى لإنطاكيا فى القرن التاسع إلى تعيين حرس خاص مهمته حفظ الطوائف المسيحية من ذبح بعضها فى الكنيسة .

وفى « موسوعة التاريخ الدبلوماسى للمغرب » للمؤرخ المغربى الدكتور التازى وثيقة تاريخية ترجع للقرن السابع الهجرى ، رسالة ملك المغرب إلى ملكى إسپانيا وفرنسا ، يدعوهما لنبذ الحرب ليعيشا فى سلام ، ويرد لملك إسپانيا تاجه الذى عرضه عليه مقابل أن يحارب معه فرنسا .

ولكننى أكرر أننا مسئولون عن الحرب التى بيننا شعوباً وحكاماً ، وآمل سرعة انتهائها .

قال جوردون كأنه يريد تغيير الحديث : أنا أذهب نهاية كل عام لإسرائيل لتوزيع كتبى هناك ، وسوف آتى لمصر فى زيارتى القادمة .

التقطت زوجته الحديث وقالت أنها تحلم بالسفر لمصر ومشاهدة الآثار والاستمتاع بدفء مصر ودفء شعبها .

لم نتقابل ثانية لعدة أعوام ، ثم رأيته مؤخراً فى معرض فرانكفورت للكتاب ، فسألته : لماذا لم أراك فى مصر ؟ فأجاب انقطعت عن زيارة الشرق الأوسط ، فلقد نصبوا على فى إسرائيل !

---

* جاء فى مذكرات الدكتور الزيات وزير الخارجية الأسبق ، إن نيكسون بعد أن قابل خمسة من وزراء الخارجية العرب خلال حرب ٧٣ ، وهموا بالانصراف ، استبقى وزير الخارجية السعودى السقاف ، ولم يقل له شيئاً أكثر من السؤال عن صحة الملك فيصل ، فتعجب الوزير السعودى لذلك ، وقص الحادث على الدكتور الزيات الذى أجابه ، انفراده بك ليظن الآخرون الظنون !

وقبل ذلك جاء فى وثيقة بانر (١٩٠٧) رئيس الحزب الليبرالى فى إنجلترا فصل الجناح الشرقى الأسيوى عن الجناح الغربى الأفريقى للأمة العربية وإثارة كل ألوان النزاع والشقاق فى جسمها حتى لا يقوم للعرب قائمة ، تلك القائمة التى تحمل من المفاجآت مالا يتحمله التاريخ الغربى مرتين .